

تاريخ وحضارة الدولة المرابطية (430-541هـ/1038-1156م)

تمهيد: ينتسب المثلثون الذين عرفوا فيما بعد بالمرابطين إلى قبيلة لمتونة إحدى بطون صنهاجة أعظم قبائل البربر؛ التي تضم عددا كبيرا من القبائل أشهرها (مسوفة، مسراتة، مداسة، جدالة، لمطة، غيرهاه)، وكانت لمتونة تتولى رئاسة هذه القبائل، ثم آلت الرئاسة إلى قبيلة جدالة في عهد الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي الذي تولى زعامة صنهاجة، ولا شك أن هذا الزعيم لاحظ أن الدويلات المستقلة في بلاد المغرب الإسلامي تأسست على أيدي زعماء دينيين وروحانيين، مثل أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الذي تزعم القبائل النفوسية الإباضية وشكل النواة الأولى للدولة الرستمية الإباضية، وأبي عبيد الله الشيعي الذي تزعم قبيلة كتامة وأسس الدولة الفاطمية، وإدريس الأكبر الذي تزعم قبيلة أوربة وأسس الدولة الإدريسية وغيرها....

1- بداية الدعوة المرابطية:

في سنة 427هـ/1035م خرج يحيى بن إبراهيم إلى الحج وفي طريق عودته نزل بمدينة القيروان باعتبارها حاضرة علمية، والتقى أي عمران الفاسي شيخ المذهب المالكي واستمع لدروسه ومحاضراته، وبالنظر إلى الحياة القاسية التي كانت تعيشها القبائل الصنهاجية في موطنه، ارتأى هذا الأخير اصطحابه معه إلى بلاد المغرب قصد تعليم مجتمعه القبلي وجمع كلمتهم كمحاولة لبداية تأسيس دولة جديدة، غير أن الشيخ تعذر عن تحقيق رغبته وكتب إلى أحد طلبته في سجلماسة عاصمة بني مدرار يسمى (وكاك بن زولو اللمطي)، وكان وكاك فقيها ذا مكانة وجاه، فندب هو الآخر تلميذا له للقيام بتلك المهمة يسمى (عبد الله بن ياسين الجزولي).

2- عبد الله بن ياسين الزعيم الروحي لدولة المرابطين:

نهض عبد الله بن ياسين لأداء مهمته وتوجه إلى قبائل جدالة، فقد كشف لنا التاريخ عن شخصية متحمسة واسعة المطامع، واستطاع بسبب معرفته للهجات البربرية وطبيعة شخصيته الاجتماعية اجتذاب الطلبة إليه من كل فج واستطاع كسب قلوب القبائل اللمتونية والجدالية الصنهاجية وغيرها، وبدأت شخصيته السياسية تظهر شيئا فشيئا، وازدادت رغبته في تأسيس دولة صنهاجية بعد ما عايش معاناة القبائل الصنهاجية التي كانت تعيش تحت حصار وتهديد قبيلة زناتة، وبعد أن تأكد عبد الله بن ياسين من أنه كون حوله جماعة من المخلصين وقويت عصبيته، خرج بهم إلى جزيرة في المحيط قرب مصب واد السنغال حسب ما يذكره أحد المصادر التاريخية لكي يفرغوا لأموال العبادة والتحضير النفسي لبداية الجهاد وتأسيس الدولة، وهناك أنشأ رباطاً لم يلبث أن اتسع، وبعد أن رأى عبد الله بن ياسين أنه يملك عددا كبيرا من الأنصار خاطبهم وقال لهم: "اخرجوا فأتتم المرابطون" وعلى هذا الأساس سموهم (المرابطين).

هنا تظهر صورة عبد الله بن ياسين القائد العسكري الماهر، الذي يحسن قيادة الجيوش وترتيب المعارك، فكانت الخطوة الأولى أمامه القضاء على سلطان المغراويين والزناتيين؛ الذين كانوا يسيطرون على المغرب الأقصى، فعبر مع رجاله الصحراء متجها نحو الشمال واسترجع إقليم (تافيلالت)، واستخلص سجلماسة في حدود سنة 450هـ/1058م، ثم ارتد إلى الجنوب فعبّر الصحراء وهاجم أهل السودان الغربي في حوض السنغال، فأخذت القبائل الصنهاجية المعروفة تتوسع شمالا وجنوبا وتؤسس لبداية دولة جديدة، غير أن هذا القائد لم يلبث أن قتل في إحدى المعارك سنة 451هـ/1059م، وبقي أبي بكر بن يحيى بن إبراهيم الجدالي لوحده يواجه تحديات إستكمال تأسيس الدولة المرابطية.

3- بداية تأسيس الدولة المرابطية وتوسعها:

بعد وفاة عبد الله بن ياسين كان سلطان أبي بكر بن يحيى بن عمر وقبيلته لمتونة قد استقر وطاعت له القبائل الصنهاجية، وكان في تلك المرحلة في عز شبابه يستعين في مشروعه بأهل الثقة من أقربائه وخاصة عمه يوسف بن تاشفين، وفي سنة 461هـ/1069م عمل المرابطون على إنشاء قاعدة عسكرية وسياسية للحركة في سهل تانسيفت الفسيح الذي أصبح مركزا لهم، فأنشئ مقرهم الأول في قريتين تسمى كل منهما بـ (أغمات)، فشرع أبي بكر في بناء قاعدته سنة 461هـ/1069م وأطلق عليها إسم (مراكش) معناها بالبربرية (مركوش) ومعناها قصر الحجر لأن مباني المدينة أقيمت بالحجر، ما لبثت هذه المدينة أن نمت وازدهرت، وفي سنة 463هـ/1071م بلغه أن قبيلة جدالة وثبت بقبيلة لمتونة وأنزلت بها مذبحه، فقرر العودة إلى إلى منازل صنهاجة في الصحراء لإنجاد لمتونة، وخلف على مراكش وقبائلها بن عمه يوسف بن تاشفين بعد أن طلق زوجته زينب النفزاوية وأرها بالزواج معه وترك معه ثلث الجيش.

عمل يوسف بن تاشفين في مرحلة غياب ابن عمه على التوسع، فقد مد حدود دولته الناشئة من ساحل المحيط إلى شرق نهر ملوية، وزحف نحو المغرب وأخضع كلا من قبائل مغراوة وزاتة وبنو يفرن، واستطاع بسط سلطانه في فترة وجيزة على المغرب الأوسط بحيث ضم تلمسان بلغ توسعه الجزائر التي كانت تعرف وقتئذ بـ (جزائر بين مزغنة) وبنى فيها مسجدا جامعيا ما زال شاهدا على ذلك، وتذكر المصادر التاريخية أن عند عودته إلى أغمات سنة 454هـ/1062م تزوج بـ "زينب النفزاوية"، وفي تلك الظروف الصعبة التي كانت تمر بها الدولة الناشئة عاد أبو بكر بن يحيى بعد أن قضى على الثورات والصراعات التي كانت تهدد كيانه، غير أن يوسف بن تاشفين كان قد بلغ من القوة والعظمة ما يؤهله لأن يكون أميرا على دولة المرابطين، وفي نفس الوقت لا يمكنه أن يتنرد على إمامه وأميره الشرعي، وهنا يبرز دور زوجته زينب النفزاوية بنت إسحاق؛ التي أشارت عليه بأن يظهر له الغلضة في موقف قوة لا موقف ضعف من جهة، وأن يلاطفه بالهدايا والأموال والخلع والثياب من جهة أخرى، وبعد لقاء يوسف بن تاشفين لابن عمه عمر بن يحيى أظهر له مظاهر السلطة والقوة وسلم عليه وهو راكب على خيله ولم يترجل كعادته في موكب يحيط به حرسه الخاص وجيش جرار وراءه، وبعد هذه المشاهد

التاريخية ارتأى يحيى بن عمر أن يوسف بن تاشفين يملك الكفاءة التي تؤهله لقيادة الدولة الناشئة، فجمع أشياخ المرابطين من لمتونة وأعيان الدولة والكتاب والشهود وأشهدهم على نفسه بالتنازل عن الإمارة لابن عمه يوسف بن تاشفين سنة 465هـ/1073م.

لقد كانت الأندلس فس تلك الفترة تعيش حالة من الانقسام والانشطار عرفت عند المؤرخين بـ(عصر ملوك الطوائف) التي امتدت من 422-487هـ/1031-1094م، فأصبحت غرناطة بيد بني زيري، وألمرية بيد بني صمادح، وإشبيلية بيد بني عباد، وطليطلة بيد بني النون، فكانت النكسات بدأت تتوالى على هذه الدويلات الصغيرة، غير أن مأساة سقوط طليطلة بيد ألفونسو السادس سنة 478هـ/1085م بات يعتبر نذير شؤم للأندلسيين، بحيث أن زوال ملكهم أصبح وشيكاً يحتاج إلى وقت لتحقيق أسوأ مخاوفهم، فقد أعقب هذا الإضمحلال المتنامي الذي ما انفك يتعاضم إجتماع مشايخ قرطبة وزعمائها للتشاور وتقييم الأوضاع وتشخيص حالة الأندلس، فكان القرار الذي خرج به المؤتمرون هو الإستنجاد بالمرابطين تحت قيادة أميرهم يوسف بن تاشفين.

لقد عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس ثلاث مرات على التوالي، إذ أنه لم يكن ينوي التوسع في الأندلس في بداية الأمر، ورجوعه إلى المغرب في العبور الأول والثاني قد يبرر ذلك ويؤكد اعتقادنا، فبعد معركة الزلاقة التي خاضها ضد ألفونسو سنة 479هـ/1086م، تمكن يوسف بن تاشفين من منح حوالي 406 سنوات ميلادية 418 سنة هجرية لاستمرار الحضارة الإسلامية في الأندلس، بيد أن ملوك الطوائف لم تكونوا مؤهلين على ما يبدو لتسيير دويلاتهم ولم تجتمع لهم كلمة، ما اضطر يوسف بن تاشفين إلى العبور النهائي سنة 482هـ/1089م، وقام بعزل أمراء ملوك الطوائف ماعدا أمير سرقسطة الذي دخل في طاعته، وعزل المعتمد بن عباد حاكم إشبيلية وأخذه معه إلى المغرب.

لقد فرضت الظروف الجديدة في الأندلس على المرابطين مسؤولية ثقيلة، فكان عليهم مواصلة الجهاد وحدهم، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الأندلس كانت دار هجرة وأن المرابطين لم يجدوا العون لمهمة الجهاد، بات يسيرا علينا أن نستشعر ثقل المسؤولية الملقاة على عاتقهم، وأصبح بمقدورنا أن نتنبأ بأن نجاحهم لبلوغ غايتهم قد يكون ضرباً من الوهم، خصوصاً إذا قلنا بأن قوة ناشئة أخرى أصبحت تتشكل في الأفق متمثلة في دعوة ابن تومرت لتأسيس دولة الموحدين.

خلاصة: ما يثير الدهشة والغربة كلما تعمقنا في تأسيس الدويلات المستقلة، هو أن الدعاية الروحية والدينية كانت دائماً تعد اللبنة الأولى لجمع الأنصار من مختلف القبائل البرية التي استوطنت المغرب الإسلامي، فقبيلة كومية البرنسية ليست أقل حظ من قبائل جدالة ولمتونة، فحتى هذه الأخيرة ارتأت لنفسها إمكانية لتأسيس دولة مستقلة يمكن من خلالها إثبات ذاتها وحضورها التاريخي، غير أن يوسف بن تاشفين كان أكثر ذكاء مما نتوقع، فقد اجتمهدهم في تشويه سمعة المرابطين واتهامهم بالمروق عن الدين والنجس وغير ذلك، فكانت هذه وسيلته المكيافيلية لبلوغ غايته الأسمى وهي تأسيس دولة الموحدين.